قصص الرحـــالة

— ١٠ —

« ســـتانلي يكشف نهر الكنغو »

« أسعِدتُم صَباحاً يا أبنائي ! ! أنا هنري مورتن ستانلي ، وقد وُلِدتُ بمقاطعة « ويلز » بإنجلترا ؛ من والدين فقيرين . ومات والدي ، وأنا صغير ؛ فأرسلتني والدتي ، إلى مدرسة الصنائع ، لأتعلم إحدى المهن ؛ ولكني فضلت أن أكون بحاراً ؛ فهجرت المدارس ، وقصدت البحار ، لأعمل في إحدى السفن ؛ فبدأت حياتي كخادم بسيط ؛ ثم تدرجت إلى أن صرت ربانا (قبطانا) ؛ وقد قمت بعدة رحلات ، إلى أواسط إفريقية ؛ لكشف الستار عن مجاهلها !

ستانلي

وآخر رحلاتي ، وأهمها ، كانت إلى « لوالبا » «Lualba» بإفريقية ؛ وكان « لفنجستون » قد كشف ذلك النهر ؛ وزعم أنه جزء من أعالي النيل ؛ ولكني كنت في شك من هذا ، لذلك قمت ، لأتحقق بنفسي من جغرافية هذا النهر .

وبدأت رحلتي على النهر ؛ من أقصى نقطة وصل إليها لفنجستون : وهناك قابلت تاجراً أعرابياً ، وأنبأته بعزمي على ارتياد مجرى النهر ؛ فحاول أن يلقي في قلبي الرعب ، ويجسم لي الخطر من تلك الرحلة ؛ قائلاً : « إن النهر ، يخترق في مجراه ، غابات كثيفة ، وأحراشاً مترامية الأطراف ؛ لا سبيل لاجتيازها ، لوعورتها ، ولكثرة ما فيها من الفهود والسباع والغوريلاً ، التي تنقض على الناس من فوق الأشجار فتهلكهم ، والأفاعي القاتلة التي تفتك بمن تصادفه ، فتكا ذريعا ؛ والنمل وغيره من الحشرات السامة ، التي إذا لسعت ، قتلت على الفور ؛ وإن نجوت من كل هذا ،

فَلَنْ تَنْجُوَ مِنَ الآدَمِيِّينَ أَكَلَةِ لُحُومِ الْبَشَرِ ، وَهُمْ لاَ يُحْصَوْنَ عَدَداً ، فِي تِلْكَ الْمَنَاطِقِ ! »

وَخُيِّلَ لِي عِنْدَئِذٍ ؛ أَنِّي حَقّاً أَمَامَ رِحْلَةٍ تَكْتَنِفُهَا الأَخْطَارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ! ! عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَثْنِيَ مِنْ عَزْمِي وَلاَ مِنْ عَزْمِ زَمِيلِي « فَرَنْكَ بُوكُوكْ » وَفِي أُغُسْطُسَ سَنَةَ ١٨٧٦ ، فَنَّا وَمَعَنَا مِنَ الرِّجَالِ سَبْعُمِائَةٍ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ التَّاجِرِ الأَعْرَابِيِّ وَحَمَلْنَا مَعَنَا سَفِينَةً (دَعَوْنَاهَا لِيدِي أَلِيسْ «Lady Alice» وَكَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَمَانِ قِطَعٍ يُمْكِنُ تَرْكِيبُهَا عِنْدَ اللُّزُومِ وَبَعْضُ سُفُنٍ أُخْرَى صَغِيرَةٍ .

وَاتَّخَذْنَا طَرِيقَنَا ، فِي الْغَابَاتِ الْمُظْلِمَةِ الْمُوحِشَةِ ! وَبَلَغَ مِنْ كَثَافَةِ الأَشْجَارِ ، وَتَشَابُكِ أَغْصَانِهَا ؛ أَنْ كُنَّا لاَ نَرَى الشَّمْسَ إِلاَّ غِرَاراً ، وَكَانَ الضَّوْءُ فِي الْغَابَةِ ، كَالشَّفَقِ أَوْ أَظْلَمَ قَلِيلاً ؛ وَكَانَتْ قَطَرَاتُ الْمَاءِ تَتَسَاقَطُ عَلَيْنَا مِنَ الأَشْجَارِ وَفُرُوعِهَا ، بِدُونِ انْقِطَاعٍ ؛ أَمَّا الطَّرِيقُ ، فَكَانَ مُوحِلاً زَلِقاً لِلْغَايَةِ ؛ لِذَلِكَ كُنَّا نَسِيرُ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ ؛ وَكَثِيراً مَا كَانَتْ تَعْتَرِضُنَا أَشْجَارٌ هَائِلَةٌ ، سَقَطَتْ فَسَدَّتِ الطَّرِيقَ سَدّاً مُحْكَماً ! لَوْلاَ أَنْ كُنَّا نَنْفُذُ مِنْ خِلاَلِ الأَغْصَانِ وَالأَوْرَاقِ ! !

وَبَعْدَ مَسِيرِ عَشَرَةِ أَيَّامٍ قَاسَيْنَا فِي أَثْنَائِهَا الأَمَرَّيْنِ ؛ رَفَضَ الرِّجَالُ ، مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ ؛ وَكَانَ الْمَوْقِفُ حَرِجاً ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ خَمْسَمِائَةِ جُنَيْهٍ إِذَا هُمْ وَاصَلُوا السَّيْرَ ؛ فَقَبِلُوا ؛ وَبَعْدَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْماً ، رَأَيْنَا النَّهْرَ ؛ لأَوَّلِ مَرَّةٍ بَعْدَ فِيَامِنَا ؛ فَأَمَرْتُ بِإِنْزَالِ السُّفُنِ إِلَى النَّهْرِ وَانْقَسَمْنَا فَرِيقَيْنِ ؛ فَرِيقٌ يَسِيرُ فِي النَّهْرِ ، وَالْفَرِيقُ الآخَرُ ، يَسِيرُ عَلَى الأَقْدَامِ بِمُحَاذَاةِ الشَّاطِئِ ، قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ .

وَفِي الطَّرِيقِ ، هَاجَمَتْنَا عِصَابَاتٌ مِنْ أَكَلَةِ لُحُومِ الْبَشَرِ ، عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَكَانُوا ، إِذَا رَأَوْنَا ، صَاحُوا : « هَا ! ! هَا ! ! لُحُومٌ بَشَرِيَّةٌ ! ! هَذَا يَوْمُ عِيدٍ لَنَا ! ! سَنَشْبَعُ لَحْماً ! ! . » وَنَحْنُ ، وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَنْجُ مِنْ سِهَامِهِمْ الْمَسْمُومَةِ ، إِلاَّ أَنَّنَا حَمِدْنَا اللهَ كَثِيراً ؛ لأَنَّنَا نَجَوْنَا مِنْ أَسْنَانِهِمْ ! !

وَكَانَ يُصَادِفُنَا ، فِي النَّهْرِ مِئَاتٌ مِنْ حُصُنِ الْبَحْرِ ، وَالتَّمَاسِيحِ تَتَسَكَّعُ فِي الْمَاءِ كَمَا كَانَتْ أَسْرَابٌ لاَ حَصْرَ لَهَا مِنَ الْبَبَغَاوَاتِ

ذاتِ الألْوانِ البَدِيعَةِ ، تَحُومُ فَوْقَ رُءُوسِنَا ، وَتَجُرُّ السُّفُنَ بِالحِبَالِ . وَسِرْنَا فِي أَحْرَاشٍ مُخِيفَةٍ ، وهِيَ تَصِيحُ صِيَاحاً يَصُمُّ الآذَانَ ؛ أَمَّا القِرَدَةُ تَنَاوَشُنَا فِيهَا الوُحُوشُ الضَّارِيَةُ حِيناً ، وَأَكَلَةُ والنَّسَانِيسُ فَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَثْرَتِهَا وَصِيَاحِهَا ، لُحُومِ البَشَرِ حِيناً آخَرَ . وَقَضَيْنَا اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَن أَصْبَحَتْ لَدَيْنَا شَيْئاً مَأْلُوفاً ، نَرَاهُ وَنَسْمَعُهُ يَوْماً ، بَيْنَ اليَأْسِ وَالأَمَلِ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا إِلَى

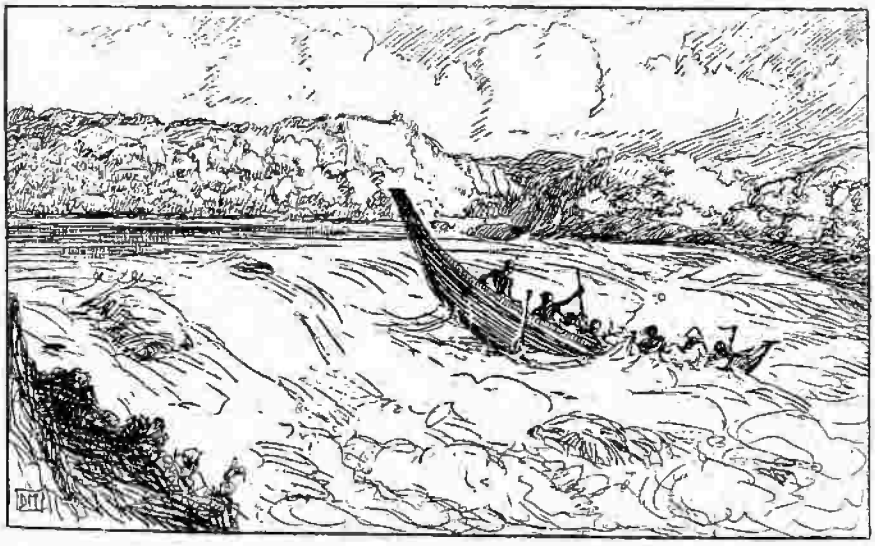

وهك وكوك ومن معهم يحاولون عبور الشلالات بالسفينة

فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ! ! كَذَلِكَ الفِيلَةُ كَثِيراً مَا كُنَّا نَرَى قُطْعَاناً هَائِلَةً مِنْهَا ، وهِيَ وَاقِفَةٌ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ لِتَشْرَبَ .

وَفِي يَنَايِرَ سَنَةَ ١٨٧٧ ، وَصَلْنَا إِلَى سِلْسِلَةٍ مِنَ الجَنَادِلِ تَعْتَرِضُ مَجْرَى النَّهْرِ ، وَهِيَ المَعْرُوفَةُ الآنَ بِاسْمِ « شَلَّالَاتِ سْتَانْلِي » . وَكَانَ مِنَ المُحَالِ أَن نَعْبُرَهَا بِالسُّفُنِ ! ! . فَاضْطُرِرْنَا ، تَفَادِياً لِتِلْكَ الشَّلَّالَاتِ ، أَنْ نَصْعَدَ إِلَى البَرِّ ، نِهَايَةِ الشَّلَّالَاتِ ؛ فَعُدْنَا إِلَى السُّفُنِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَاسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ ، عَلَى مَجْرَى مِنَ المَاءِ . يَبْلُغُ اتِّسَاعُهُ مِيلاً . وَهُنَا ثَبَتَ لَدَيَّ أَنَّ النَّهْرَ لاَ عَلاَقَةَ لَهُ بِالنِّيلِ ، كَمَا زَعَمَ « لِفِنْجِسْتُونْ » ؛ بَلْ هُوَ نَهْرٌ مُسْتَقِلٌّ يَتَّجِهُ غَرْباً ، لاَ شَمَالاً ؛ وَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ « النِّيجَرَ » أَوِ « الكُنْغُو » .

وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ ، أُسَائِلُ نَفْسِي ؛ إِذَا بِأَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَفِينَةً ، بِهَا مَنْ يَقْرُبُ مِنْ أَلْفَيْ رَجُلٍ

مُسَلَّح ، تَعْتَرِضُ طَرِيقَنَا فِي النَّهْرِ ؛ وَتَطْلُبُ مِنَّا الْوُقُوفَ عَلَى الْفَوْرِ !! لَقَدْ كَانَتْ مُفَاجَأَةً مُحْرِجَةً ؛ كَادَتْ تُوقِعُ فِي قُلُوبِنَا الرُّعْبَ ؛ لَوْلاَ أَنَّنَا عَمَدْنَا بِسُرْعَةٍ إِلَى مَدَافِعِنَا وَبَنَادِقِنَا ، فَأَطْلَقْنَا عَلَيْهِمْ وَابِلاً مِنَ الرَّصَاصِ ؛ هَلَكَ بِسَبَبِهِ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ ، وَدَفَعَ بِالْبَاقِينَ إِلَى الْهَرَبِ .

وَبَعْدَ رِحْلَةٍ ، قَطَعْنَا فِي أَثْنَائِهَا ؛ أَلْفَ مِيلٍ وَاشْتَبَكْنَا فِي إِحْدَى وَثَلاَثِينَ مَعْرَكَةً ؛ وَصَلْنَا إِلَى نُقْطَةٍ مِنَ النَّهْرِ ، يَتَّسِعُ فِيهَا مَجْرَاهُ اتِّسَاعاً هَائِلاً جِدًّا ، حَتَّى لَقَدْ يَبْدُو كَأَنَّهُ بِرْكَةٌ كَبِيرَةٌ (وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ الآنَ بِبِرْكَةِ اسْتَانْلِي) .

وَبَعْدَ أَنِ اجْتَزْنَا تِلْكَ الْبِرْكَةَ ، اعْتَرَضَتْنَا شَلاَلاَتٌ أُخْرَى ؛ وَكَانَ حَتْماً عَلَيْنَا الصُّعُودُ إِلَى الْبَرِّ ؛ وَجَرُّ الْقَوَارِبِ بِالْحِبَالِ ، كَمَا فَعَلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ تَفَادِيًا مِنَ الشَّلاَّتِ ؛ وَخَطَرَ لِزَمِيلِي « بوكوك » أَنْ يُحَاوِلَ عُبُورَ الشَّلاَّتِ بِسَفِينَةٍ ؛ فَهَلَكَ هُوَ وَجَمِيعُ مَنْ مَعَهُ !! لأَنَّ السَّفِينَةَ هَوَتْ إِلَى مَسْقَطِ الْمَاءِ ؛ فَأَحْدَقَ بِهَا النَّيَّارُ وَغَرِقَتْ .

وَلَكِنْ تَجَنُّبَ الشَّلاَّتِ ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَسِيرَ عَلَى الأَقْدَامِ مَسَافَةَ ١٧٠ مِيلاً تَقْرِيباً . وَقَدْ قَطَعْنَا تِلْكَ الْمَسَافَةَ فِي خَمْسَةِ شُهُورٍ !! أَيْ بِمُعَدَّلِ مِيلٍ وَرُبْعٍ فِي الْيَوْمِ !! وَفِي آخِرِ يُولِيه سَنَةَ ١٨٧٧ ، وَصَلْنَا إِلَى نُقْطَةٍ فِي النَّهْرِ ؛ كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهَا ، رَحَّالُونَ مِنْ قَبْلِنَا ، بِطَرِيقِ الْبَحْرِ ؛ فَتَحَقَّقَ لَدَيْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ النَّهْرَ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ ، هُوَ نَهْرُ « الْكُنْغُو » ! .

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ لِمُوَاصَلَةِ السَّفَرِ ! فَقَرَّرْنَا السَّيْرَ إِلَى مَدِينَةِ « بُومَا » ، وَهِيَ لاَ تَبْعُدُ كَثِيراً عَنِ الْبَحْرِ ؛ وَهُنَاكَ الْتَقَيْنَا بِكَثِيرٍ مِنَ التُّجَّارِ الأُورُبِّيِّينَ ، الَّذِينَ أَكْرَمُوا وِفَادَتَنَا ؛ وَسُرُّوا كَثِيراً بِلِقَائِنَا ، وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ؛ خَرَجْتُ إِلَى الْمُحِيطِ وَشَاهَدْتُ ذَلِكَ النَّهْرَ الْعَظِيمَ ، وَهُوَ يَصُبُّ فِي الْمُحِيطِ الأَطْلَانْطِيقِي !!

وَبِقَدْرِ مَا سُرِرْتُ بِنَجَاحِ رِحْلَتِي ؛ كَانَ حُزْنِي عَظِيماً ، لِفَقْدِ زَمِيلِي بوكوك ، وَإِخْوَانِهِ ، الَّذِينَ ذَهَبُوا فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ وَالْكَشْفِ .

إلاَّ ثُمْنُ حَجْمِهِ تقريباً ! فإذَا فَرَضْنَا ، مَثَلاً ، أَنَّ الجُزْءَ الظَّاهِرَ مِنَ الجَمْدِ ، فَوْقَ سطْحِ المَاءِ ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ فِي المُتَوَسِّطِ ٣٠٠ قَدَمٍ ، كَانَ الجُزْءُ المَغْمُورُ ، تَحْتَ سطْحِ المَاءِ ٢٤٠٠ قَدَمٍ .

وَالأَجْمَادُ ، تَخْتَلِفُ فِي أَشْكَالِهَا وَأَحْجَامِهَا ، اخْتِلاَفاً بَيِّنًا . فَبَيْنَمَا تَجِدُ جَمْداً مُنْتَظِمَ الشَّكْلِ ، تَجِدُ آخَرَ ، يَرْتَفِعُ إِلَى قِمَمٍ مُسَنَّنَةٍ ، غَيْرِ مُتَسَاوِيَةِ الارْتِفَاعِ ! ! بَيْنَهَا فَرَاغَاتٌ عَمِيقَةٌ ! !

وَيَبْدُو الجَمْدُ ، مِنْ بُعْدٍ ، كَأَنَّهُ جَزِيرَةٌ فِي البَحْرِ تُغَطِّيهَا الثُّلُوجُ ؛ وَإِذَا رَأَيْتَهُ عَنْ كَثَبٍ ، انْعَكَسَتْ مِنْهُ أَضْوَاءٌ قَوِيَّةٌ ذَاتُ أَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ . هِيَ الأَبْيَضُ وَالأَخْضَرُ وَالأَزْرَقُ ؛ وَقَلَّ أَنْ يَحْمِلَ الجَمْدُ مَعَهُ صُخُوراً أَوْ رُكَاماً ! !

وَالأَجْمَادُ ، تَسِيرُ فِي المَاءِ ، مَعَ «التَّيَّارَاتِ» ؛

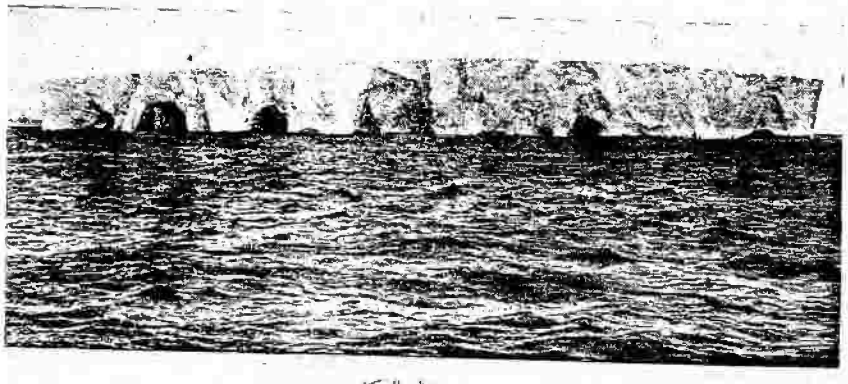

جمد منظم الشكل

فَالرِّيَاحُ وَالأَمْوَاجُ لاَ تُؤَثِّرُ فِيهَا ؛ لأَنَّهَا لاَ تَمَسُّ مِنْهَا إِلاَّ الجُزْءَ الظَّاهِرَ فَوْقَ سَطْحِ المَاءِ ! !

جمد سطحه غير منتظم

مِنْ ذَلِكَ يُمْكِنُكَ أَنْ تُدْرِكَ السَّبَبَ الذِي مِنْ أَجْلِهِ ، يَسِيرُ الجَمْدُ فِي المَاءِ ، مُوَاجِهاً العَوَاصِفَ ، مِنْ دُونِ أَنْ تَتَأَثَّرَ سُرْعَتُهُ ! !

وَقَدْ تَسِيرُ الأَجْمَادُ فِي المَاءِ ، إِلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ ، مَا دَامَ عُمْقُ المَاءِ يَسْمَحُ بِذَلِكَ . حَتَّى إِذَا وَصَلَتْ إِلَى مِنْطَقَةٍ دَفِيئَةٍ ، ذَابَتْ تَدْرِيجاً ! !

أما إذا كانَ البَحرُ غيرَ عَميقٍ ، فإنَّ الاجْمادَ ، تَشُقُّ طَريقَها فى الرِّمالِ ، فى قَعْرِ البَحْرِ ، فتَنْغَرِسُ فيهِ ، وَتَبْقى هٰكذَا إلى أنْ تَذُوبَ ! ! وَمنَ المَناظِرِ المَأْلُوفَةِ فى « ابْرَادُورَ » بأمريكَا الشَّماليةِ ، الاجْمادُ المُنْغرِسةُ ، التي تَنْتَشِرُ عَلَى سواحِلِها !

الآنَ وَقَدْ عَرَفْتَ كَيفَ تَسيرُ الاجمادُ ؛ وَمَا يَظْهَرُ منهَا وَمَا يَخْفَى تَحْتَ المَاءِ ؛ يُمكنكَ أنْ تُدْرِكَ الخَطرَ الذى تَتَعرَّضُ لهُ السُّفُنُ ، فى البِحَارِ الشَّماليةِ وَالجَنُوبيةِ ! !

فَكَمْ منْ سفينَةٍ ذَهَبَتْ بمَا عَلَيهَا ، ضَحِيَّةَ جَمْدٍ منْ تلكَ الأَجْمَادِ ! ! وَالطريقُ ، مَا بَيْنَ إنجلترا وَأمريكَا ، لاَ يَزالُ مِنطَقَةَ خَطَرٍ شَديدٍ عَلَى السُّفُنِ التي تَجْتَازُهُ ! !

وَلاَ بُدَّ أنَّكُم قَدْ قَرَأْتُم أو سَمِعْتُم عَنْ آخِرِ تلكَ الضَّحَايَا فَقَدْ كَانَتِ الْبَاخِرَةُ الإنجليزيةُ « تيتانك » ، أكْبَرُ سفُنِ العَالَمِ ، منْذُ عَهْدٍ قريبٍ ؛ تَجْتَازُ المُحيطَ فى طريقِها من لِفَرْبُولَ إلى أمريكَا ؛ فَصَدَمَتْ جَمْداً هَائلاً ، وَهِىَ فى عَرْضِ البَحْرِ ، فَتَصَدَّعَتْ ! وَفى بِضْعِ ساعَاتٍ ؛ كَانَتْ فى جَوْفِ المُحيطِ ! ! بِمَا كَانَ عَلَيْهَا من مئاتِ المُسَافِرِينَ والبَحارَةِ ! !

وَهَا نَحْنُ قادِمُونَ عَلَى « مَوْسِمِ » الاجْمَادِ ! ! فالبِحَارُ الشَّماليةُ ، والجَنوبيةُ ، عندَ بَدْءِ الصَّيْفِ تُصْبِحُ مَيْدَاناً تَتَسَابَقُ فيهِ الأجْمَادُ فى كُلِّ لَحْظَةٍ ؛ وَلَوْلاَ مَا تَتَذَرَّعُ بِهِ السُّفنُ منْ شِدَّةِ الحَذَرِ ؛ وَاليَقَظَةِ ؛ وَمَا يُحْدِثُهُ الجَمْدُ حَوْلَهُ من هُبوطٍ فُجَائِيٍّ فى دَرَجَةِ الحَرارةِ ؛ مِمَّا يُنَبِّهُ البَحَّارَةَ إلَى وُجُودِهِ ؛ لَكَثُرَتِ الضَّحَايا وَشُلَّتِ التِّجارَةُ ؛ فى تلكَ المَناطِقِ .

أودعوا متوافراتكم فى

صنـــــدوق توفـــــير الـــــبريد

يقبـــل الودائع من خمسة قروش إلى خمسمائة جنـــيه

جميع مكاتب البريد تؤدي أعمال صندوق التوفير ، تضمن الحكومة رد الودائع